

الفصل الخامس والخمسون

الشيخ خليل اليازجي

ترجمته

هو أصغر أولاد المرحوم الطيب الأثر الشيخ ناصيف اليازجي، وُلد في بيروت في بيت الشعر واللغة والإنشاء، فوضع آداب اللغة العربية مع اللبن، وقد قال الشعر وهو صبي ولم يدخل المدرسة، على أنه لم يدخل المدارس إلا بعد أن أخذ طرفاً من الأدب، وقد درس الطبيعيات والرياضيات في مدرسة الأميركان في بيروت، وبرع فيها ونظمها في الشعر، وقدم ١٨٨١م مصر، وتعرف فيها بجماعة من أهل العلم، فنال حظوة لدى الأمراء والوزراء وأنشأ مجلة «مرآة الشرق»، لم يصدر منها إلا بضعة أجزاء، ثم ظهرت الثورة العربية فعاد إلى مسقط رأسه، فانتدبته المدرسة الكلية الأميركية والمدرسة البطريركية لتعليم اللغة العربية للصفوف العالية فيها.

وفي سنة ١٨٨٦م أصابته علة في الصدر عجز عن مداواتها الأطباء، ولما فرغت حيل العقاقير وصفوا له تبديل الهواء في وادي النيل، فعاد إلى مصر وطبع فيها ديوانه المسمى «نسمات الأوراق»، وفيه نخبة منظوماته، وهي على ما طبع عليه (رحمه الله) من القريحة الشعرية.

واشتد عليه الداء في أثناء ذلك، فأشير عليه بالعودة إلى لبنان، فعاد وأقام في عبيه أشهرًا، ثم نزل إلى الحدث، وما زال فيها حتى توفاه الله في ٢٣ يناير سنة ١٨٨٩م، ونقلت جثته إلى بيروت، ودفنت فيها بمحفل حافل، وكان (رحمه الله) شاعرًا مطبوعًا، سريع الخاطر، حاد الذهن، متوقد القريحة، كثير الرواية، متفننًا في أساليب الإنشاء، قريب البرهان مع لطف المحاضرة وسمو الآداب.



الشيخ خليل اليازجي ١٨٥٦-١٨٨٩م.

مؤلفاته

أكثر مآثره المنشورة شعرية؛ أشهرها رواية «المروءة والوفاء»، وهي رواية تاريخية تمثيلية شعرية غنائية، دلَّ فيها على مقدرته في النظم وسعة معرفته بالأنغام، أساسها حكاية حنظلة الطائي مع الملك النعمان في عصر الجاهلية، فمثل فيها فضائل المروءة والوفاء تمثلاً واضحاً، وصدَّرها بقصيدة طويلة بيَّن فيها الأحوال التي يجب اتباعها في هذا النوع من الروايات، وقد أتمَّ نظمها سنة ١٨٧٦م، فبلغت أبياتها نحو ألف بيت جمعت بين المتانة والسهولة، وقد مثلت هذه الرواية في بيروت سنة ١٨٧٨م، وشهدنا ما كان من إعجاب البيروتيين بها، وتصفيقهم المتواصل في أثناء تمثيلها، وقد طبعت في بيروت سنة ١٨٨٤م، وفي مصر سنة ١٩٠٢م.

وعني (رحمه الله) أيضاً في تنقيح كتاب كليله ودمنة المشهور، وفسَّر الغريب من ألفاظه، وضبطه بالشكل الكامل، ووقف على طبعه، فجاء أضبط نسخ هذا الكتاب المعروفة.

ومما طبع من ثمار قريحته ديوان «نسمات الأوراق» — المتقدم ذكره، وفيه أكثر ما نظمته من تهانٍ ومراثٍ وتواريخ ومدائح وحكم وآداب في ما يزيد على ٢٦٠٠ بيت — سنأتي على أمثلة منها.

ومن مؤلفاته التي لم تطبع «كتاب الوسائل إلى إنشاء الرسائل»، وهو مجموع ما ألقاه على تلامذته في المدرسة البطريركية من الرسائل وأصول الإنشاء، وهو يعلم فيها هذا الفن على أسلوب يتدرج فيه الطالب من الكتابة البسيطة إلى أعلى طبقة من الإنشاء، والكتاب لا يزال خطأ في المدرسة المذكورة.

ومنها «الصحيح بين العامي والفصيح»، وهو معجم لم يسبقه أحد إلى مثله، جمع فيه مرادفات الألفاظ العامية من اللغة الفصحى، وقد رأينا (رحمه الله) وهو يعنى في جمع تلك الألفاظ يوم جاء مصر للمرة الثانية، وتوسّما في ذلك التأليف فائدة كبيرة لشدة حاجة الكتاب بنوع خاص إليه، وكان قد مثل بعضه للطبع فاشتدت عليه وطأة الداء، فانقطع عن العمل، فتوقعنا أن لا يحرمنا شقيقه الشيخ إبراهيم صاحب الضياء من إتمامه، لكنه لم يفعل، ولا نعلم مصير ذلك الكتاب.

أما شعره، فأحسن ما يقال في وصفه أن نأتي بأمثلة منه، قال من قصيدة قدم بها روايته المشار إليها إلى شقيقه المشار إليه:

لما وجدتك مثل بحر زاخر	ألقيت بين يديك بعض جواهري
هاتيك جوهرة لدي وإن تكن	صدفاً لدى دُرٍّ بلجك فاخر
نزر المقل أجلُّ في عينيه من	وفرٍ لدى عين الغني القادر
تخذت ليالي الطوال محابرا	وسوادها اتخذته حبر محابر
وهبته إِنْسان عيني فاغتدت	دعاء إذ كحلت بإثم ناظري
عذراء لكن لا أقول فريدة	للعقد إن العقد ليس بحاضري
لم ينسج الشعرا على منوالها	إن ليس معناها بقلب الشاعر
حاشاك والإطلاق أضيق حيزاً	من أن يحيط بك احتياط الدائر
شعرية لا نثر فيها وهي من	بعض الوجوه ترى كنثر الناثر

وقال من قصيدة بعث بها إلى صديقه المرحوم أديب إسحق بالقاهرة:

تلك العيون منوننا فكأنما	قد كلفتها قتلنا الأيام
ولربما نام الزمان هنيهة	عنا وتلك تصيب وهي نيام
وإذا رأت في النوم طيف خياله	فتكت به ولو أنها أحلام
طمعت بخضرتها العيون وما درت	أن السموم تكنها الأدسام
ولرب حلو في المرارة مودع	كالخبر فيه ثنا الأديب يقام
متنبه الأفكار يقظان الحجى	حتى لأعجب منه كيف ينام
فإذا تروا كاتبا فجميعه	فكر فتوشك تفصح الأقلام

وقال يمدح المرحوم شريف باشا وزير مصر من قصيدة:

قد قام في دست الوزارة فاكتسى	شرف العلى وبه تشدد أزره
ولكل ما يولي الشريف مشرف	كالنهر يكسبه التدفق بحر
وغدا زمام الدهر طوع بنانه	إن بات مكشوفاً لديه سره
وهو الذي ضبط البلاد بكفه	لما حوى ما عنه ضاقت صدره
يرنو بفكرته فيوشك ما يرى	بالعين منه أن يراه فكره

وقال من قصيدة في رثاء المرحوم المعلم بطرس البستاني:

أجرى اليراع عليك دمع مداده	فكسا به القرطاس ثوب حداده
وبه نخط لك الرثاء من الأسى	فهو المقيم على عهود وداده
فكم بميدان الطروس هزرتة	حتى جعلت الرمح من حساده
إن كان يبكيك اليراع بدمعه	فلقد بكاك حزيننا بفؤاده
يا صاحب الفضل الذي لو أننا	نبكي به لم نخش وشك نفاده
يا قطر دائرة المعارف والحجى	ومحيط فضيل فاض في إمداده
فإذا المحيط بكاك لم يك دمه	دون المحيط يزيد في أزباده
يبكي الحساب عليك متخذاً له	دمعاً يسيل عليك من أعداده
خدم البلاد وليس أشرف عنده	من أن يسمي خادماً لبلاده

ومحبة الأوطان كان يعدها مما يدور عليه أمر معاده

وقال من قصيدة يرثي بها المرحوم أديب إسحق:

أخلق بجسمك أن يبيت كليلا	عن جهد نفسك أن يموت عليلا
نهكته نفسك في المطالب والعلی	حتى تمنى للفراق سبيلا
يا راحلاً أبكى عليه محابراً	ومنابراً ومحاجراً وطلولا
ترثيك أقلامٌ يكون صريرها	نوحاً عليك من الأسى وعويلا
وهي التي قد كن بين بنانها	قضباً وكان صريرهن صليلا
ولعل مثلك ليس يوجد عندنا	حتى نرى لك منك عنك بديلا
يروى مآثر عنك يقصر دونها	صوغ القوافي في ثناك طويلا
ويعدُّ ما أحصيته في مدة	قصرت ففات العرض منها الطولا
إن كان قلّ مدى حياتك عندنا	فقليل مثلك لا يعد قليلا
فلقد ملأت به السماع جرائداً	وقصائداً ورسائلاً وفصولا
ما بين شرق في البلاد ومغرب	لم تأل فيه تغرباً ورحيلا
مستصحباً لك همة نفاذة	وعزيمة مثل الحسام صقيلا
وقريحة وقادة وبصيرة	نقادة تستوضح المجهولا

وقال من قصيدة رثا بها المرحوم سليم البستاني وقد توفي فجأة:

وهو الموت إلا أن خطبك أعظم	ورزؤك في الأرزاء أشجى وأجسمُ
ومن فلتات الدهر أمرك أنه	لا شفق في أمثال هذا وأرحمُ
لك الله ميّناً كالقتيل ولم يسل	له من دم لكن مدامعنا الدّمُ
وإن نحن طالبنا المنايا بثأره	رمتنا، وقالت من يطالب عنكمُ
وإن نحن عاتبنا الزمان بفعله	قرعنا سماعاً ما له من يترجمُ
فعدنا وقد خبنا من الدهر مأملاً	ننوح على ماكان منه ونلطمُ
كذا الدهر إلا أن من زاد همه	وقصر عن تفريجه يتظلمُ
فقدنا بني الأوطان عضواً مكرماً	كجسم مضت منه يد فهو أجذمُ

ألا إننا في فقدته اليوم أسرةً وأوطاننا في نوحه اليوم مأتَمٌ
على مثله يبكي وهيئات مثله فتى طاب منه القلب واليد والفمُ

قال يمدح المرحوم الدكتور فان ديك إثر مرض شفي منه على يده:

لو استطعت جعلت البرق لي قلمًا ورحت أملأ آفاق السماء ثنًا
يا كنز فضل وعلم لا نفاذ له إن النفيس عزيز قد ينال وقد
كالشمس تعطي ثناها كل ذي بصرٍ نبغي مبالغة في الشعر فيك فلا
والشعر لا بد فيه من مبالغة أنت الطبيب لأجساد العباد وللـ
والفيلسوف الذي أحصى العلوم وقد تدعى الحكيم وإن نعن الطبيب وإن
يا مغفلًا نفسه في جنب منفعة كأنما الناس طرًا عيلة لك من

والجو طرسا وحبري الغيث حين همي عليك منتثرًا طورًا ومنظما
مع أنه لزم الإنفاق والكرما بذلته بيننا غنمًا لمن غنما
وربما كان لا يدري له قيما نستطيع ذاك ولا نقضي الذي لزمنا
إلا بوصفك فهو الغالب الكلما عقول والأنفس اللاتي اشتكت سقما
أسالها منهلاً للمشتكين ظما لا نعينه فصحيح فيك كلهما
للآخرين جزييت الخير والنعما شكا فإنك معه تشتكي ألما

وكتب من القاهرة وهو مريض إلى بعض أعزائه في بيروت:

قل صبر الفؤاد والشوق غالب غالب السقم مني الشوق حتى
غلب السقم بانحيازي إليه لم أقل هاربًا ومن لي بهذا
غير أنني قسمت قلبي فكان الـ كلما حن مني القلب قال الـ
وعسى الله أن يصير بي بل وإذا لم يكن فقد قام عذري

والضنى وحده لذا الشوق غالب بات قلبي ميدان كل محارب
وانثنى الشوق إنما غير هارب فهو طي الفؤاد ضربة لازب
سقم في جانب وشوقي بجانب عقل مهلاً فأنت لست بصاحب
بكثيرين ذلك الظن خائب أنني قد عملت ما هو واجب

الشيخ خليل اليازجي

ويكون هذا البعد ابتداءً لبعاد هذا له لا يقاربُ
غير أنني أرى لليلي فجرًا ربما كان صادقًا غير كاذبُ
ليس من عائق لهذا ولا ذا فبكل من الخواطي صائبُ
كيف يُشفى مَنْ كلَّ حين يرى المو ت وغربانه عليه نواعبُ
خاف من موته فمات من الخو ف كثير فثق وطاوع وناصبُ

وقال مؤرخًا ميلاد غلام اسمه فضل الله سنة ١٨٧٥م:

أتى لبني الطوا غلام بوفده نشرنا برود الأُنس في كل محضرٍ
فوافى الهنا يدعو أباه مؤرخًا لقد حل فضل الله عندك فأبشرِ

وكتب على إحدى صورته:

لما تملكتم على قلبي ولم أطمع له من عندكم بمعادٍ
أهديتكم رسمي لكيما تجمعوا ما بين جسمي عندكم وفؤادي

وكتب:

لك مني أثر العين التي لك فيها أثر في كل أين
فتقبله ولو كنت امرئًا ليس يرضى أثرًا من بعد عين

وكتب:

رسم إليك بعثته وأنا أهوى لو أن مكانه الجسمُ
إن كان ذلك ليس يمكني يا حبذا لو أنني رسمُ

وكتب:

بعثت لكم موهوم شخصي ممثلًا وشخصكم في مقلتي ظل بالوهم
لعلي من الوهمين أجنبي حقيقةً فرسمًا ترى ذاتي وذاتًا يرى رسمي

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني)

وقال في ضارب عود:

وضارب عود قد أزاغ عيوننا ببرقين من تلك البنان وذئ الكف
تنازعه آذاننا وعيوننا فهذي إلى كحل وتلك إلى شنف